

جمالية الإيقاع في رواية "الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي"
لـ "الطاهر وطار"

The Narrative Rhythm Aesthetics in "The
Immaculate Wali Returns to His Saint Place"
By "Taher Wattar"

د. صليحة جلاب *

تاريخ النشر: 2021/09/15	تاريخ القبول: 2021/04/14	تاريخ الإرسال: 2021/01/24
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

يعد الإيقاع الروائي منهجا جديدا في دراسة البنية الروائية، بغية الكشف عن فنيتهما، وكيفية تشكيلها سرديا، وأبعادها الفكرية، إذ يُعنى بضبط حركة وتغير، وتعاقب وتكرار العناصر الروائية، مما قد يكسبها بعدا دلاليا إيقاعيا إذا ما أحسن نظمها.

أنت هذه الدراسة في مقارنة تطبيقية لرواية "الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي"، كونها نصا رمزيا عجائبيا، حافلا بالمتناصات، الأمر الذي نوع أحداثها وشخصياتها، وبالتالي نوع الإيقاع فيها، فما هي آليات تشكل الإيقاع وجمالياته في الرواية؟

الكلمات المفتاحية: الإيقاع، الأحداث، الشخصيات، المكان، الزمن، التكرار.

Abstract:

The narrative rhythm is a new approach that studies narrative structure, its artistry, its narration formation, and its intellectual dimensions. The narrative rhythm controls the succession and

المؤلف المرسل: صليحة جلاب djelleb.saliha@gmail.com

* جامعة يحيى فارس بالمدينة djelleb.saliha@gmail.com

repetition of fictional elements, which gives them a rhythmic semantic dimension if structured properly.

This research studies the novel "The Immaculate Wali Returns to His Saint Place", a miraculous symbolic text, known for intertextuality, the diversity of its events and characters, and its rhythm. So, what are the mechanisms that form narrative rhythm and its aesthetics?

Key words: Rhythm, Events, Characters, Place, Time, Repetition.

*** **

مقدمة:

إذا جئنا إلى مفهوم الإيقاع، فإن أول ما نربطه به هو الموسيقى، ثم ما لبث أن دخل مجالات أخرى باهتمامات أخرى وتباين درسه فيها وإن تشابه المصطلح، لنجده يدخل باب الكتابات الأدبية وأولها الشعر وبخاصة الشعر العمودي، لما يوفره الشعر من وزن وقافية وتفعيلات مناسبة لتمظهر الإيقاع وتجليه.

يرتبط النص الشعري بالإيقاع، فهو خاصية جوهريّة فيه، كونه الكلام الموزون المقفى، الذي لا يستقيم دون وزن وإلا غدا أقرب إلى النثر، "فالشعر صناعة ذات قواعد إيقاعية دقيقة، لا تؤخذ هونا، بل يقف عندها الشاعر طويلا، يهذب، ويدقق، ويحذف، حتى تستقيم..."¹.

لم يعد "الإيقاع" حكرا على الشعر وحده بل انتقل مع الدرس النقدي الحديث إلى النثر وما يهمننا في هذا المقام هو "الرواية"، وإن تشابه المصطلح بين نصي الشعر والرواية إلا أن موضوعه في كليهما قد اختلف، فإذا كان الشعر يراعي الإيقاع، كونه خاصية جوهريّة فيه، فإن درس الإيقاع في الرواية المعاصرة اهتم بتتبع البنية السردية وترددها في النص للكشف عن أبعاد النص وفنيته.

وما تجدر الإشارة إليه أنها دراسة لم تحظ بعد بالاهتمام والإقبال اللازمين من قبل الدارسين والنقاد سواء في الأدبين الغربي أو العربي، لذا كانت

الدراسات فيه قليلة وأكثرها نظيرية، ومن بين الدراسات العربية نجد " في الإيقاع الروائي " لـ " أحمد الزعبي " والتي كانت لنا دليلا نستأنس به في هذه الدراسة.

تسعى هذه الدراسة للتعرف على الإيقاع الروائي ومجال اهتمامه نظريا، ومن ثم محاولة إسقاطه تطبيقيا على المدونة المختارة، بالإجابات عن جملة من الإشكاليات أهمها: كيف يتشكل الإيقاع في الرواية؟ ومتى نستطيع أن نقول عن رواية ما أنها ذات إيقاع؟ وما الذي يضيفه هذا الإيقاع -إن وجد- على النص الروائي من دلالة وجمالية؟.

بغية الإجابة عن هذه الإشكاليات أتت هذه الدراسة مسطرة الضوء على مفهوم الإيقاع الروائي وأهميته، والتعرف على العناصر الإيقاعية وإسقاطها على الرواية وتحريها فيها .

1- مفهوم الإيقاع الروائي:

لا نجد للإيقاع الروائي تعريفات عديدة ومتنوعة ، وقد عرفه " أحمد الزعبي " بقوله : " الإيقاع في الرواية يشكل ويرصد عالم الأمكنة والأزمنة والأحداث في حركتها في تغيرها وبنائها ومدلولاتها ويرسم هذه الخطوط الإيقاعية المنتظمة فيما بينها التي تشكّل بناء الرواية ومعمارها وهندستها".²

ويذهب تعريف آخر إلى أن " الإيقاع تزواج بين عالمين، عالم خارجي مرئي ظاهري للشخصية، والحدث والمكان ...، وعالم داخلي خفي يخص الشخصية نفسها والحدث نفسه، وهذا التزاوج أو التداخل يُشكل إيقاعا معيناً يكشف عن عمق العلاقات بين الناس والأشياء".³

يُجمع التعريفان السابقان على أن الإيقاع في الرواية يُعنى بجانبين، الخارجي وهو البنية السردية وتظايفها مع بعضها لتشكل لنا عالما سرديا، وداخلي يُعنى بكل عنصر من هذه العناصر على حدة (الأحداث، الشخصيات، المكان، الزمن، ...)، وكيف أنها تُشكل إيقاعا خاصا معيناً، يتردد وقعه بتعدد هذا المكون، فقد يتعدد صدى المكان - مثلا- كلما شد الحنين البطل إلى موطنه، سواء عن طريق التذكر أو التداعي.

يختلف الإيقاع من رواية إلى أخرى، فتحقق الإيقاع وجماليته يكون في حُسن سبك الرواية وجودة تقديم مضمونها السردي، إذ يقول "ألبيرس" (Alberes): "أن الرواية تبقى مجرد وثيقة ولا تُشكل رواية ما لم تجد إيقاعا وغناء يصنعان منها شيئا آخر، غير مجرد لوحة أحسن تأليفها"⁴، من هنا تتجلى أهمية دراسة الإيقاع الروائي في فهم مضمون النص وأبعاده، والذي لا يتجلى إلا للقارئ المنقب المتتبع للمقاطع الروائية، كون الإيقاع يتخلل كل مسار وكل قول، إذ بات تحققه في النص من مقاييس إبداعية النص الروائي، ف"بما أن الرواية قصة، فإن الرواية الجيدة هي تلك التي ينتظمها إيقاعات جيدة: إيقاع للمكان وآخر للشخصيات وآخر للأحداث وغيرها"⁵.

ويذهب الناقد الانجليزي "يوجين راسكين" (E.Rzskin) إلى القول أن: "الإيقاع يعني التكرار بالدرجة الأولى"⁶.

من هنا نلمس أن للإيقاع علاقة لازمة بالتكرار، فمع كل تكرار يحدث إيقاعا يحمل معنىً جديدا، لكنه ليس مجرد تكرار فحسب، إنه تكرار فني مقصود موظف لغايات نصية ما، تحمل مقاصد النص ومضامينه، "فالإيقاع يضبط حركة الحدث والمكان والزمان والخط واللون، وينظمهما ويكسبهما معنى جديدا...بُعدا جديدا...أفقا آخر عند كل تكرار"⁷.

تختلف دلالة التكرار سواء كانت للأحداث أو الأمكنة أو الأزمنة، لتحدث دلالة ما يبغي السارد إيصالها والتعبير عنها عند كل تكرار.

2- إيقاع العناصر الروائية:

يتشكل النص الروائي من جملة مكونات ترسي معالمه وتقييم ركانزه في تعالق مع بعضها وتفاوت في درجة التوظيف لكل مكون، وذلك حسب مضمون السرد ومرماه، و التي تشكل في الأخير إيقاعا خاصا ينبع مضمون النص، ويحقق رغبة السارد النصية، ويضفي جمالية إذا ما أحسن تشكيله، ومن أهم الإيقاعات السردية، نجد:

1-2- الأحداث : تشكل لبَّ الرواية ومادتها البنائية، كما أنها تتوالى لتشكّل فحوى النص، إنها "سلسلة من الوقائع المتصلة تتسم بالوحدة والدلالة، وتتلاحق من خلال بداية ووسط ونهاية"⁸.

تؤثر الأحداث التي تطرأ على حياة الإنسان إيجاباً أو سلباً عليه، كونها جزءاً من حياته الأسرية أو الاجتماعية أو السياسية ...، حتى إنها تُسهم في بلورة شخصيته، لذا تعدُّ مكوناً سردياً من شأنه أن يحدث إيقاعاً من خلال رصد الحدث.. متى حدث ؟ لماذا حدث ؟ كيف حدث ؟ كيف يعود للحدث؟ وهكذا .

يُعنى الإيقاع الروائي بشكل رئيسي "بالأحداث من حيث وقوعها وتشكّلها وتنظيمها في نسق معين ينسجم مع بناء الرواية الكلي ويبلور عالمها ومغزاها ومضمونها"⁹.

إن ما يغير من شخصية الإنسان وسلوكه، وردود أفعاله هو ما يطرأ عليه من أحداث يومية قد تغير مجرى حياته، حتى إنها تُسهم في بلورة شخصيته وتكوينه الباطني .

تتباين الأحداث في النص الروائي حسب أسلوب الكاتب، وإن كان الموضوع واحداً فالأسلوب مختلف، يتباين بتعدد الساردين؛ لكل أسلوبه في عرضها، وإن أجاد السارد عرضها أحدث إيقاعاً يتردد وقعه مع تردد الحدث ليتعالق مع باقي الأحداث مشكلاً بناءً سردياً، "قد يبدأ قصته من أول أحداثها ثم يتطور بأحداثه وشخصه تطورا أساسياً متبعاً المنهج الزمني أي الطريقة التقليدية، وقد تبدأ القصة بنهايتها، فيصور الحادثة ثم يعود بنا إلى الخلف كي يكشف الأسباب والشخصيات، وقد يتبع أسلوب اللاوعي والتداعي، فيبدأ من نقطة معينة ويتقدم ويتأخر حسب قانون التداعي...، الطريقة الحديثة، كل ذلك متروك لعبقرية الكاتب وتمكنه من أدوات الكتابة"¹⁰.

2-2- إيقاع الشخصية:

يذهب "أحمد الزعبي" إلى أن: "الإيقاع يُعنى بالشخصيات من حيث تشكل عالمها الداخلي والخارجي وفق حركة الفعل وردة الفعل ما بين العالمين"¹¹.

وتتكفل الشخصيات على المسرح الروائي بأداء الأدوار من أجل إبلاغ مضمون النص والتعبير عنه، فهي الركيزة الأساس التي يرتكز عليها الخطاب السردى ويتمحور حولها، فالشخصيات تطرح عبر مسارها وتشكلها السرديين جملة من الأفعال وردود الأفعال، وهذا التشكل والتغير في سلوك الشخصيات هو ما يُعنى به الإيقاع، كونه "يعمّق الرؤية في فنية العمل الأدبي وأبعاده الفكرية ويلقي ضوءاً على الوضع الإنساني .. كيف يتصرف الإنسان ..، كيف يفكر ..، كيف يتشكّل ..، كيف يقيم علاقاته؟ كيف يحطمها؟... كيف يتكوّن عالمه النفسي...، وبالتالي كيف يعيش بهذه الشخصية التي تُقدم إلينا في عمل روائي أو فني... إلخ"¹².

يبدأ الإيقاع بدراسة الجانب الشكلي الظاهري للشخصيات ليغوص إلى باطنه، فهو يتتبع مسارها عبر الخط السردى وما يطرأ عليها، وكيف تتغير بتغير الوضع، مفسراً تصرفاتها، مبرراً ردود أفعالها أحياناً، مقدماً طريقة تفكيرها، واختياراتها من خلال الفعل وردة الفعل، وانعكاس ذلك كله على تكوينها النفسي.

2-3- إيقاع المكان:

يعد المكان في الرواية خشبة مسرح لباقي المكونات السردية، فهو مكون فعال وحيوي له وقع خاص إن لم يكن جوهرياً في بعض الروايات، فالكثير من الروايات يدور مغزاها حول المكان، من هنا كان عنصراً مهماً من عناصر الإيقاع، فـ "الإيقاع في الرواية يُشكل ويرصد عالم الأمكنة"¹³.

يشكل المكان مع باقي المكونات السردية وشائج، فقد أصبح يحدد طبيعة سلوك الشخصيات، فما هو جائز في مكان ما قد يُحرم في مكان آخر، فالشخصيات تطبع المكان بطباعها وعقيدتها وأعرافها، كما لا يذكر المكان إلا وحضر الزمن بجانبه يرافقه ويقع عليه تغييراً تفرضه طبيعة الأحداث والمستجدات، فالمكان عادة ما يخضع لقهر الزمن وسطوته، وعليه فالأحداث هي الأخرى لها وقعها على الشخصيات والمكان، فقد يتعرض المكان للخراب أو التهجير أو الظلم، ما يجعله يكسب قيماً جديدة فرضتها الأحداث.

2-4- إيقاع الزمن:

جمالية الإيقاع في رواية "الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي..."

لا يمكن للرواية أن تكون دون زمن وإن كان زمنا أدبيا لا يخضع لعقارب الساعة، "فالزمن ليس محتوى تتكسد فيه الأحداث، إنما يرتبط ويتعلق بنا وبحركات وجودنا"¹⁴.

أكثر ما يؤثر على الشخصيات والأماكن والأحداث هو الزمن، وإن كان مضبوطا بثوانيه ودقائقه وساعاته، فإن الإنسان متأثر به لا محالة، طفلا كان أو شابا، أو كهلا أو شيخا، ليتغير بتغير مراحل عمره.

إن ضبط الإيقاع الزمني في الرواية وما يحمله للشخصيات في الرواية من مستجدات من شأنها أن تلزمهم بأفعال وردود أفعال، تكشف عن مضامين نصية، بالإجابة عن أسئلة: كيف كان الزمن في الرواية؟ كيف تشكل؟ هل تغير؟ لماذا تغير؟....

3- الإيقاع الروائي وجماليته في الرواية:

يشكل السرد المباشر الذاتي الذي ينتجه الروائي في روايته إيقاعا متسقا ملما بمكونات النص من أحداث متنوعة، وعوالم الشخصيات الداخلية والخارجية، والأمكنة والأزمنة.

3-1- إيقاع الأحداث:

تنوعت وتكررت بعض الأحداث في الرواية، وكلها تصب في المضمون الأكبر وهو "البحث عن المقام الزكي"، في معان ضمنية تدعو إلى التمسك بالدين الإسلامي وتعاليمه الذي بات مهددا في ظل تشويه الحقائق و التهميه والاستيلا ب الحضاري.

تحتوي الرواية على (156 صفحة)، تتوزع على ثماني مشاهد معنونة، وبعضها ورد مع فصول متسلسلة في تفاوتٍ رقي.

المخطط الآتي يبرز لنا المضامين السردية، وقد جاءت على الشكل الآتي:

المشهد	العنوان	الحيز الذي تشغله من صفحات الرواية
1	تخلق حر	من 11 ← 28 أي (18 صفحة)
2	العلو فوق السحب	من 29 ← 66 أي (38 صفحة)
3	السهيلة	من 67 ← 93 أي (38 صفحة)

4	في بداية كان الإقلاع	من 94 ← 147 أي (38 صفحة)
5	محاولة الهبوط أولى	من 148 ← (صفحة واحدة)
6	محاولة هبوط ثانية	من 149 ← 152 أي (4 صفحات)
7	محاولة هبوط أخرى	من 153 ← 155 أي (صفحتين)
8	هبوط اضطراري	156 (صفحة واحدة).

- المشهد الأول: تحلق حر:

وهو العنوان الفرعي الأول الذي افتتح به السارد نصه السردى، وهو ليس مجرد تركيب لغوي فحسب، بل هو ذو دلالة قوية موحية بالتححر والانعقاد، والتخلص من أغلال تأباها وتعافها الشخصية المحورية.

جاء هذا المشهد متضمنا لعدة أحداث، الوباء الذي مس الأمة الإسلامية، تغيير الزي (نزع العمامة، البنطالونات الضيقة،...)، تغيير السلوك (تدخين النساء، الفسق والفجور،...)، فساد الإعلام ونشر الرذيلة، "لا أحد أعلن عن بقائه على إسلامه"¹⁵، وقد جاء إيقاع الأحداث في هذا المشهد سريعا بسرعة التغيير الحاصل في الأمة، ليرافقه الحرص على الهروب بدين الله إلى بر الأمان "إذا ما مسَّ الوباء الروح فلا علاج غير الاستحمام بالذكر"¹⁶.

- المشهد الثاني: العلو فوق السحب:

توحي بمرحلة أكثر ضبابية من سابقتها، فهي تتم في طبقة أكثر ارتفاعا يغوص فيها "الولي الطاهر" في أعماق التاريخ الإسلامي، ويخوض معارك وحروباً طاحنة، وي طرح قضايا جرت في صدر الإسلام الأول-حروب الردة- مقارنا إياها بالأوضاع الراهنة.

- المشهد الثالث: السهيلة:

هذه الكلمة (سهيلة) نجد لها معان مختلفة، منها:

-كلمة مشتقة من الفعل (سهل)، إذ يقال: جاء فلان سهيلا، أي بلا عتاد ولا عدة. وقد تكون كلمة منحوتة من باب: البسمة، الحمدلة، الحوقلة، الحيلة.

أما في الرواية فقد أورد السارد على لسان بطله معرفا سهيلا: "تسمية من عندي لحالة صوفية كاذبة، تجعل الدجال يذهل عن نفسه وعن ربه، فلا هو بالنائم ولا هو باليقظ".¹⁷

قد يكون المؤلف باستعماله هذه الكلمة غير المتداولة، يلمح إلى حالة الشعب الجزائري الذي أصبح مغيب العقل لا يعي ما يدور حوله، نتيجة لاصطدامه بالواقع المعيش و سلبياته بعد أن بنى أحلاما وردية عقب الاستقلال، أو نتيجة لاصطدامه بنمط الحياة الغربية التي دخلت حياته بكل رقة وشفافية وإغراءات داعية إياه إلى الالتحاق بها، فكان بهذا يعيش حالة ضياع بين الماضي الغارق في الضباب، والحاضر الملبّد بالغيوم أيضا، فكان لا مناص له إلا حالة الغيبوبة التي كان يهرب بها من الواقع المفروض عليه.

- المشهد الرابع: في البداية كان الإقلاع:

هي من أطول المشاهد إذ احتلت (54 صفحة) كاملة، ولعل هذا عائد إلى أهمية المواضيع التي تطرحها، من بينها تعرض "الولي الطاهر" لحادثة وجد نفسه مشاركا فيها رفقة أشخاص، "يمارسون أعمال التقطيل بالكلاشينكوف والفؤوس والذبح والسبي والاغتصاب في حق مواطني حي الرايس الذي شهد مجزرة في صائفة 1997".¹⁸

كما عرج أيضا على الحياة النفسية المضطربة لبعض الشباب الجزائري، متخذًا لذلك نموذجا واقعيًا حيا هو، "عيسى لحليح" أستاذ جامعي "أجبر على هجر مدرج الدراسة بجامعة قسنطينة، ترك طلبته وطلباته والقلم والقرطاس".¹⁹

وقد أوردت الرواية بعض رسائل²⁰ "عبد الله عيسى لحليح" مرفوقة بذكر اسمه وتاريخ كتابتها، وهي رسائل حقيقية .

- أما المشهد الثامن: هبوط اضطراري:

فهو آخر مشهد، وهو خاتمة الرواية احتل صفحة واحدة فقط، انتهى بحالة كسوف، "قرر الولي الطاهر، أن يؤدي صلاة الكسوف".²¹

2-3- إيقاع الشخصيات:

الولي الطاهر: إن أول ما يلفت انتباه القارئ هو اسم الشخصية الرئيسية، التي يربطها فور سماعه لها بالدين والعفة والطهر...، إذ نجد "الشريف الجرجاني (ت 816هـ) يورد: "الولي: هو العارف بالله وصفاته بحسب ما يمكن، المواظب على الطاعات، المجتنب عن المعاصي، المُعْرِضُ عن الانهماك في اللذات والشهوات"²²، وهذه الدلالات الدينية ترتب عنها لزما صفة "الطهر" لتزيد إيقاع كلمة "الولي" دلالة وعمقا، ف"الطاهر: من عصمه الله تعالى من المخالفات"²³.

صاحب المقام الأول والحضور الطاغي في الرواية، فهو حامل للمضمون؛ لم يكن شخصية عادية فحسب بل هو مؤد لعدة أدوار، مرة بطل صوفي، ومرة إنسان مسلم تائه، وأخرى بطل ملحمي"، وقد "وجد الولي الطاهر في نفسه قوة خارقة، فكان وحده يقوم مقام عشرة محاربين أشداء، ما جعله محط أنظار الجميع"²⁴، ومرات حاكم متسلط، وأخرى إرهابي.

تنوع إيقاعات "الولي الطاهر" جاء للكشف عن سلبيات المجتمع الجزائري خاصة والأمة العربية الإسلامية عامة.

الإيقاع الخارجي النائي عن تعاليم الدين الحنيف والاستيلا ب الحصول للعقول أثار على باطن الشخصية المتدنية، المتمسكة بتعاليم دينها، ما جعلها لا تكل ولا تمل بحثا عن ملاذها "المقام الزكي"، ففي كل مرة تسقط مصروعة من هول ما رأت بعد تعب إلا واستيقظت من جديد بحثا عن ضالتها.

والملاحظ تكرار الشخصية الرئيسية للالزمة: "يا خافي الألفاف نلنا مما نلاف"، والتي شكلت إيقاعا صارخا تردد وقعها عبر صفحات الرواية وأحداثها (32 مرة)، ليتشكل مع هذه اللملة المكررة الخوف والحرص على بقاء دين الله وألا يمسه الأعداء، وهو محفوظ بحفظه رغم كيد الكائدين.

البلارة: شخصية تاريخية حقيقية أليانا ووهمية أليانا أخرى، "بلارة ابنة تميم بن المعز زولة الناصر بن علناس بن حماد"²⁵، وأليانا مثلت اقتحام الآخر لحياتنا ومعتقدنا بكل رقة وعذوبة وتزويق، "المرأة تزاد بهاء، ورونقا، وإغراء واشتهاء..."²⁶، إنها رمز للفتنة والردة، فقولها: "أريد أن أعيش معك حالة وأن تمنحني ولدا يكون "كل الناس"²⁷ كناية عن محاولة إقامة مجتمع علماني

جمالية الإيقاع في رواية "الولي الطاهريعود إلى مقامه الزكي..."

واحد، وإرساء معتقد ديني ونظام سياسي واحد"، كما وسمها بالفتنة الأمازيغية "بلارة الفتنة الأمازيغية"²⁸.

شكلت "بلارة" في الرواية إيقاعاً للفتنة، وجاءت مرددة لعبارة شكلت معنى ضمناً فحواه محاولة التضليل وتخويف للولي وللأمة الإسلامية: "أحذرك يا مولاي من سفك دمي"، والتي تكررت ثلاث مرات.

المريدون والمريدات: هم ذكور وإناث يقطنون المقام، "الطابق الذي فوقه مرقد للطلبة والمريدين الذي فوقه، مرقد الطالبات والمريدات"²⁹، وكلا الطابقين محاصر من كل الجهات ولا تصله إلا الشمس، إلا أن هناك علاقة غامضة تربط بين الذكور والإناث ولا يتردد وقعها إلا في الليل لكن ليس بالمعنى المادي وإنما عن طريق الحلم، "إنها تأتي الواحد منا، عند منتصف كل ليلة، توقظه، وتقول له، يا فلان ابن فلانة ابن فلان، اخطبني من الولي الطاهر"³⁰، هي طالبة دخيلة على المقام أتت لكسر روحانية المكان والإخلال بإيمان الطلبة والطالبات، الأمر الذي جعل الطلبة يشكون منها، فبقي الطالبات "لا ينزلن إلا للصلاة، ويصلين ويزاولن التعليم من وراء حجب، كذلك، ثم إنهن مثلكم قانتات عابدات، فكيف تشتكون منهن أو من أية واحدة منهن"³¹.

جسدت شخصية "المريدون والمريدات" دور المؤمنين القانتين المتمسكين بدين الله، والذين يعانون خطر الوباء لكنهم يأبون إلا أن يتمسكوا بحبل الله.

3-3- إيقاع المكان: تنوعت إيقاعات المكان في الرواية بتنوع مرامي النص، فجمعت بين أمكنة واقعية "الجزائر، القاهرة، العراق، الشيشنان،..."، وأمكنة خيالية أسطورية ذات فضاء مفتوح وزمن مفتوح يسمح للبطل بتجول عبر الأزمنة بكل حرية من أجل تقديم فحوى النص.

يعد إيقاع المكان في الرواية من أهم الإيقاعات إن لم نقل محورها، ذلك أن "الولي الطاهر" في رحلة بحث عن "المقام الزكي"، وكل ما قدم من أحداث سردية كان خدمة لتبيان سبب فقدانه وغاية لبلوغه، فلا يسقط الولي مغشياً عليه إلا ليعود من جديد بعد انتباهته للبحث عنه.

توزعت إيقاعات المكان عبر:

- المقام الزكي: يحمل معنى صوفيا، "فالمقام هو المنزل التي يدركها العبد بالجدّ في السلوك"³²، كما لم يكتف وأكّد له صفة الزكاء، التي تحمل معنى إيجابيا يشفع للولي قنوطه لضياعه وحرصه لبلوغه " نعم أنا هنا صاحب المقام الزكي"³³، ويورد " الولي ": "حياتنا مقام، والأحداث فيها أبواب، تفضي بنا إليها دون غيرها"³⁴.

ظل إيقاع المكان يتردد صدها عبر الحكى دون كلل أو ملل، فهو نقطة تأزم في الرواية وذروة صراع، إذ ظل يتسع ويمتد وما يلبث أن يضيق من جديد. تجري أحداث الرواية في فضاء أسطوري مفتوح.

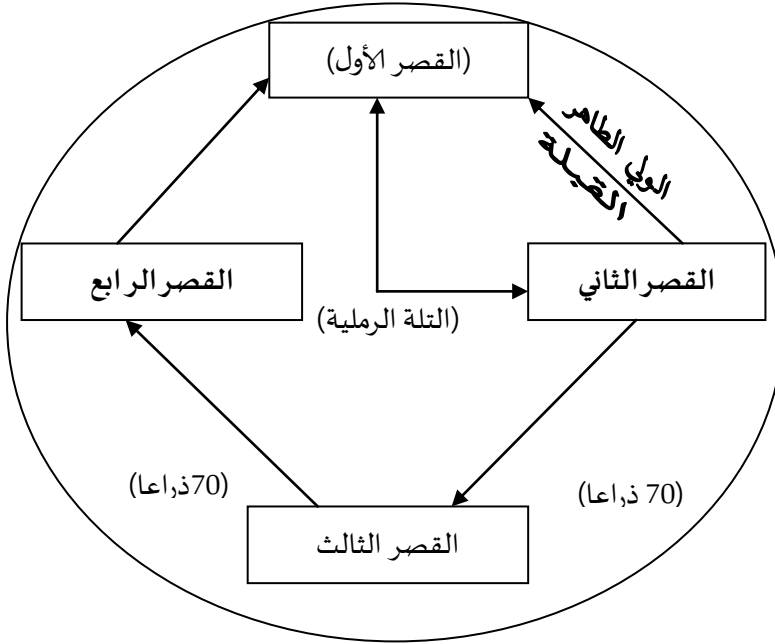
الصحراء (الفيف): قال " ابن منظور (ت711هـ): " الْفَيْفُ وَالْفَيْفَاءُ: المفازة لا ماء فيها مع الاستواء والسعة، وجمعها الفَيَافِي، وَالْفَيْفُ: المكان المُسْتَوِي، وكل طريق بين جبلين فَيْفٌ "³⁵.

الفيفُ في الرواية مكان للجن، يصبح الإنسي جنيا والجنى إنسيا، مكان من إرساء الحلم، مكان مختار للهروب بدين الله من الوباء الذي حل بالمسلمين، لكن ورغم حصانة المكان وعزلته إلا أن الوباء تسرب إليه عن طريق المريدة الدخيلة.

في بحث الولي عن مقامه تجلت له في محاولة تمويه أربعة قصور، وكان في كل مرة يقصد قصرا منها تدور فيه أحداث – ورد ذكرها سابقا -، لتؤول في الأخير إلى البحث من جديد"، "ينبغي أن لا أستسلم لهذه الحال، أكانت امتحانا ربانيا أم خدعة شيطانية لعرقلة العودة إلى المقام الزكي"³⁶.

مع فقدان المكان "أدار رأسه ربع دائرة فلم يقابله سوى الفيف، يمتد بحر أصفر تحت قبة زرقاء، بحث عن باقي القصور فلم يعثر لها عن أثر"³⁷، حتى إن القصر الرابع لم يكن هو المقام، ليتردد وقع المكان بين خيبة وأمل قائم، "فلم أضع نهاية، إنما اقترحت نهايات واكتفيت بخاتمة، هي هبوط اضطراري، ومحطة لإقلاع جديد"³⁸. ويمكن التمثيل لحركة الشخصية عبر الأمكنة وإيقاعها بالشكل التالي:

رحلة "الولي الطاهر" عبر الأمكنة وإيقاعها



4-3- إيقاع الزمن : سيقت الرواية ضمن اللازم، فهو زمن أدبي، دلالي لا يخضع لعقارب الساعة وإن توقف عند محطات تاريخية حدثت خدمة للمضمون النصي "عندما يسقط الولي الطاهر مغميا عليه في حضرة طيبة، لا حد لا مكانه ولا لزمانه، ومحاولة معرفة ذلك إفساد للحالة"³⁹، في هذه الرواية رفض للزمن الحاضر أو بالأحرى لما ساد في الحاضر من ابتعاد عن الدين جراء محاربته من أعداءه ومحاولة استيلاء لعقول المسلمين، إنه زمن تذكير بالتاريخ الإسلامي.

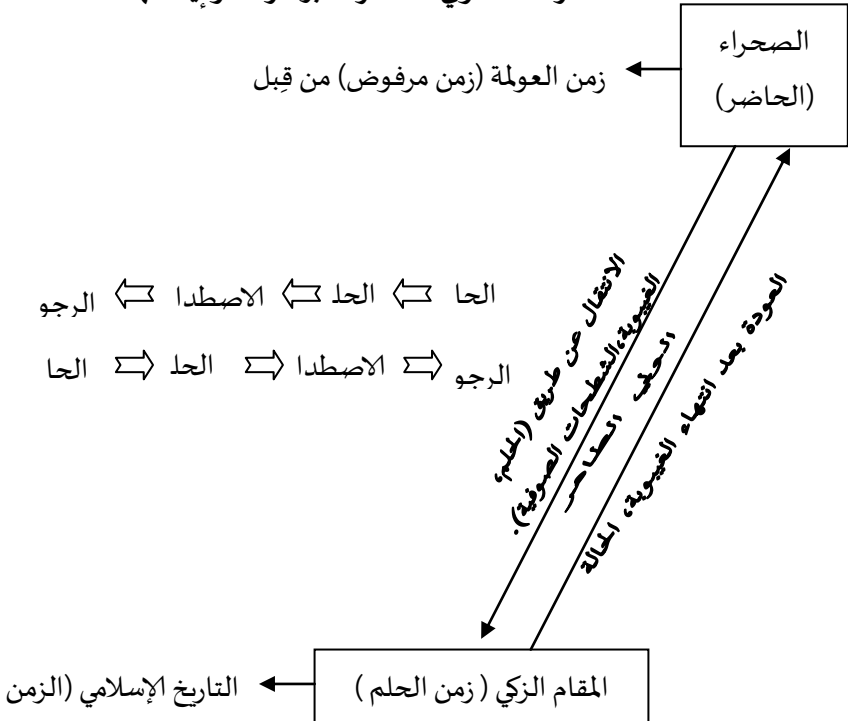
نوتات إيقاع الزمن في روايات صوفية تتم عن طريق الشطحات الصوفية التي يعيشها "الولي"، إنه زمن تذكر والتنقل بين الأزمنة، زمن صيفي (قيض)، "فلربما الأمر كله لا يعدو أن يكون اضطرابا في الرؤية تسببت فيه حرارة الشمس الوهاجة"⁴⁰، زمن نهاري، جل الأحداث تجري في وضوح النهار، "النهار مثل مقامي يتضاعف، بتوقف الميقات، ولا شك أن الليل سينتظر ألف سنة مما يعدون"⁴¹.

تراوحت إيقاعات الزمن بين استرجاعات واستباقات في تعالق سردي واءم طرح الأحداث وفق رؤية الكاتب، في ارتداد البطل إلى الماضي يغيب الزمن وتتلأشى فواصله " ذاكرة الولي الطاهر تستعيد صوراً وأخيلة، عن وقائع جرت، لكن لا يميز، أو حتى يتصور زمن وقوعها، الأمس واليوم والسنة الماضية، والقرن الماضي، كلها، آن قد يصغر وقد يكبر، قد يطول وقد يقصر"⁴².

جاءت الاستباقات في الرواية قليلة عكس الاسترجاعات، لأن البطل في حنين دائم إلى ماضيه المغيب وهويته المفقودة في الوسط الذي وجد نفسه فيه، "إنهم صاروا كل الناس يا مولاي، ففي اللحظة الواحدة، وقبل أن تعيد طرفك إليك، تكون من خلال الأقمار التي تجوب الفضاء، حيثما شئت تبيع وتشتري، وتعالج، وتقرأ وتتخرج"⁴³.

ونورد فيما يأتي مخططاً لحركة "الولي الطاهر" عبر الأزمنة:

رحلة "الولي الطاهر" عبر الأزمنة وإيقاعها



خاتمة:

نخلص في الأخير بعد هذه الجولة البحثية إلى نتيجة مفادها أن دراسة الإيقاع في الرواية يحاول أن يجيب عن سؤالين جوهريين ، هما : هل استطاع الروائي أن يبني روايته بناء سرديا منسجما ، محكما ، متناسقا بحيث يؤدي معنى النص وفحواه ؟ وهل تمكن من أن يضفي على نصه لمسة إبداعية جمالية ؟

مثل هذه الدراسة الإيقاعية لا تتأني بقراءة سطحية ، مرددة لسطور النص ومعانيه السطحية بل تكون بقراءة منتجة ، غائصة في المعاني الثواني من لدن قارئ منتج بدوره له خلفيات معرفية ، وأيضا ذائقة جمالية .

التمسنا في المدونة المختارة جرسا إيقاعيا ، ترددت رناته عبر مقاطع الرواية جاء نتيجةً لحسن سبك البنية السردية ، وثناء للخلفية المعرفية ، وكذا وجود ذائقة أدبية فنية ، والتي وردت من لدن كاتب متمرس ، متشكل قرابة نصف قرن من الزمن ، مطلع على تقنيات الكتابة السردية الحديثة .

تعددت الإيقاعات الصغرى في الرواية " واقع وتاريخ وأسطورة ... ، لتشكل مع الإيقاعات الكبرى " الأحداث ، الشخصيات ، المكان والزمان " ، عملا روائيا حاملا لمقاصد النص ، جاء إيقاع الأحداث في الرواية حافلا بين تاريخ إسلامي وحاضر ومستقبل مجهول ، لتحدث في باطن الشخصية المحورية هلعا وخوفا وبالتالي ذودا عن دين الله ، ما جعلها تتحرر من سلطة الزمن باحثة عن الهدف المنشود وهو العودة والتمسك بالدين الإسلامي "المقام الزكي" .

وقد شكل إيقاع المكان حيزا واسعا واستحوذ على باقي الإيقاعات السردية ، لي طرح عبر ترددات وتعاقب السطور السردية مضمونا فحواه حماية الدين الإسلامي من الوباء ، وتنشئة الجيل الجديد على الفضائل المحمدية .

الهوامش:

- 1 - عبد الرحمان آلوجي، الإيقاع في الشعر العربي، دار الحصاد، ط1، دمشق - سوريا، 1989م، ص51.
- 2- أحمد الزعبي، في الإيقاع الروائي : نحو منهج جديد في دراسة البنية الروائية، دار المناهل، ط1، بيروت - لبنان، 1415هـ-1995م، ص7.
- 3 - ذهبية ابتسام، الإيقاع الروائي في " المينا الشرقية" لـ " محمد جبريل"، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة بسكرة، الجزائر، العدد3، 2006م، ص187.
- 4 - ر.م. أليبرز، تاريخ الرواية الحديثة، ترجمة : جورج سالم، منشورات بحر المتوسط، ط1، بيروت، لبنان، 1982م، ص466.
- 5 - أحمد محمد النعيمي، إيقاع الزمن في الرواية العربية المعاصرة، دار الفارس، ط1، الأردن، 2004م، ص15.
- 6 - أحمد الزعبي، في الإيقاع الروائي، ص6.
- 7- الطاهر وطار، الولي الطاهر يعود إلى المقام الزكي، منشورات التبئين، دط، الجاحظية، الجزائر، 1999م، ص68.
- 8- جيرالد برنس، المصطلح السردى، ترجمة : عابد خرندار، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، القاهرة، 2003م، ص19.
- 9- أحمد الزعبي، في الإيقاع الروائي، ص8.
- 10- صبيحة عودة زغرب، غسان الكنفاني: جماليات السرد في الخطاب الروائي، دار مجدلاوي، ط1، عمان، الأردن، 2006م، ص135.
- 11- أحمد الزعبي، في الإيقاع الروائي، مرجع سابق، ص8-9.
- 12- المرجع نفسه، ص8.
- 13- أحمد الزعبي، في الإيقاع الروائي، مرجع سابق، ص7.
- 14- آلان روب جرييه، نحو رواية جديدة، ترجمة: مصطفى إبراهيم مصطفى، دار المعارف، القاهرة، دط، ص152.
- 15- الولي الطاهر، ص22.
- 16- الولي الطاهر، ص40-60.

- 17- الولي الطاهر. ص: 81.
- 18- انظر: الولي الطاهر. ص: 146.
- 19- الولي الطاهر. 138
- 20- انظر: الولي الطاهر، ص: 136، 137، 138
- 21- الولي الطاهر. ص: 156.
- 22- الشريف الجرجاني، التعريفات، وضع حواشيه وفهارسه : محمد باسل عيون السرد، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، (1421هـ-2000م)، ص249 (باب الواو).
- 23- الشريف الجرجاني، التعريفات، ص 413 (باب الطاء).
- 24- الولي الطاهر، ص 33.
- 25- الولي الطاهر، ص 91.
- 26- الولي الطاهر، ص 90.
- 27- الولي الطاهر، ص 84.
- 28- الولي الطاهر، ص188.
- 29- الولي الطاهر، ص21.
- 30- الولي الطاهر، ص 24.
- 31- الولي الطاهر، ص25.
- 32- محمد بن بركة البوزيدي الحسني، التصوف الإسلامي من الرمزالى العرفان، دارالمتون، ط1، (1427هـ-2006م)، ص 232.
- 33- أحمد الزعبي، في الإيقاع الروائي، مرجع سابق، ص8.
- 34- الولي الطاهر، ص70.
- 35- محمد منظور، لسان اللسان: تهذيب لسان العرب، تم تهذيبه بعناية المكتب الثقافي لتحقيق الكتب، إشراف: علي مهنا، دارالكتب العلمية، الجزء2، ط1، بيروت، لبنان، (1413هـ-1993م)، ص345.
- 36- الولي الطاهر، ص 19.
- 37- الولي الطاهر، ص 124.
- 38- الولي الطاهر، ص 10.
- 39- الولي الطاهر، ص 14.

40- الولي الطاهر، ص 13.

41- الولي الطاهر، ص 16.

42- الولي الطاهر، ص 20.

43- الولي الطاهر، ص 87.

*** **